

الصوفية عوامل انتشارها وآثارها على الدولة العثمانية

الكاتب

د. علي بن محمد الصلابي



صفحات مِنَ التاريخ الإسلامى (٦)

الدولـــة العثمانيـة

عوامِل النهوض وأسباب السقوط

تـأليـف

على محمد محمد الصلابى

رابعاً: الصوفية المنحرفة:

إن أعظم انحراف وقع في تاريخ الأمة الإسلامية ظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة في المجتمع الإسلامي تحمل عقائد وأفكار وعبادات بعيدة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد قوى عود الصوفية المنحرفة واشتدت شوكتها في أواخر العصر العثماني بسبب عوامل متعددة منها:

١ - الأحوال السيئة التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية والواقع المرير الذي كان يعيشه المسلمون في تلك الفترة، من انتشار التخلف والظلم والطغيان والفقر والمرض والجهل، كل ذلك جعل الناس يرتمون في أحضان الصوفية المنحرفة، التي لا تقوم بأكثر من التربيت عليهم، والتحذير لهم، وجعلهم يعيشون في غير واقعهم الذي فروا منه.

٢ - كان اضطراب الأمن وانعدامه سمة من سمات العصور المتأخرة، حيث كانت تزهق الأرواح لأسباب تافهة بل دون سبب في بعض الأحيان، وفي هذه الأجواء الحالكة، والظروف العصيبة، كان أرباب التصوف يحيون حياة هادئة يرفرف عليها الأمن والاطمئنان بعيدة عن المصائب والفتن التي فتكت بالناس.

«قد كان الفقراء أروح بالا وأكثر طمأنينة من الفلاحين في حقولهم والتجار في متاجرهم والصناع في مصانعهم، فقد كانوا في أمن من تطبيق القوانين.. وكانوا في أغلب فترات الظلم الفادح في نجاة من هذه الشرور كلها، لأن الجنود كانوا يخافون بأسهم، ويخشون سلطانهم الروحي، ويؤمنون باتصالهم بالله، فيتزلفون إليهم ويطلبون الرضا منهم، فأقبل بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً بما سيصيبه في رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال»(١).

٣ - الترف في معيشة أرباب الفرق: «كان الفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك لا يجهدون أنفسهم في احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه، بل كانوا يعيشون في الزوايا، طاعمين كاسين، على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله.. ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهاد الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شئون العيش، أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف..(٢).

---

(١) انظر: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، د. الطويل، ص١٥٢، ١٥٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٥٤.

٤ - حب الأتراك العثمانيين للدروشة والتصوف: «كان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهل الإيمان بصدق ولايتهم»[١].

«لقد كانت الصوفية قد أخذت تنتشر فى المجتمع العباسى، ولكنها كانت ركناً منعزلاً عن المجتمع، أما فى ظل الدولة العثمانية، وفى تركيا بالذات، فقد صارت هى المجتمع وصارت هى الدين، وانتشرت - فى القرنين الأخيرين بصفة خاصة - تلك القولة العجيبة: من لا شيخ له فشيخه الشيطان! وأصبحت - بالنسبة للعامة بصورة عامة - هى مدخلهم إلى الدين وهى مجال ممارستهم للدين»[٢].

وقد كان كثير من سلاطين آل عثمان يقومون برعاية الصوفية، ويفيضون عليها من عطفهم وحدبهم، حتى جاء السلطان عبدالحميد إلى السلطنة فى ظروف عصيبة والمؤامرات تحاك للأمة، والكوارث والمحن تحيط بها من كل مكان، ودعاة القومية يبثون دعوتهم فى سائر البلاد، فدعا إلى الجامعة الإسلامية والرابطة الدينية، وكانت الصوفية بجميع أصنافها وطرقها تشكل ثقلاً فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

لقد كان ذلك العصر، عصر الصوفية التى أطبقت على العالم الإسلامى من أدناه إلى أقصاه، ولم تبقى مدينة ولا قرية إلا دخلتها إلا إذا استثنينا نجد وملحقاتها[٣].

لقد سيطرت الصوفية المنحرفة على العالم الإسلامى فى تلك الفترة، ووقع جمهور من المسلمين فى أسرها، وعظم سلطان المتصوفة فى ذينك القرنين، وبلغ مبلغاً عظيماً، لو لم يكن من قوته ونفوذه إلا هيمنته على الجماهير الغفيرة فى طول البلاد وعرضها لكفى، فكيف إذا تبنته الدولة وناصره الحكام[٤].

وكانت نظرة المتصوفة المنحرفة تحترم البطالة وتبيح التسول، وتصطنع الضيق، وتسعى إلى مواطن الذل، وتغتبط بالهوان، وكانت نظرتهم إلى الأخذ بالأسباب منحرفة جدا «فما أخيب التاجر الذى يصرف وقته فى تجارته، والزارع الذى ينفق جهده في زراعته، والصانع الذى يبذل نشاطه فى صناعته، وما أفشل من سافر منهم طلباً لكسب أو رغبة فى مال، فإن الرزق فى طلب صاحبه دائر، والمرزوق فى طلب رزقه حائر، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر..».

---

(١) انظر: التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، ص ١٥٤.
(٢) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٥٥.
(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٤٤٧).
(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٤٨).

وفسدت لدى كثير من المتصوفة عقيدة القضاء والقدر وأصبحت عندهم عقيدة سلبية مخذلة، لقد كتاب أحد المستشرقين الألمان وهو يؤرخ لحال المسلمين فى عصورهم الأخيرة يقول: «طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار، وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان: ففى العصر الإسلامى الأول لعبت دوراً كبيرا فى الحروب إذ حققت نصراً متواصلاً لأنها دفعت فى الجندى روح الفداء. وفى العصور الأخيرة كانت سببا فى الجمود الذى خيم على العالم الإسلامى فقذف به إلى الانحدار وعزله وطواه عن تيارات الأحداث العالمية»(١).

إن هذا الرجل وهو كافر أدرك هذه الحقيقة: حقيقة الفرق بين الإيمان بالقدر كما فهمه السلف وبين الإيمان الذى ابتدعه الخلف متأثرين بالمتصوفة، فالذنب ليس ذنب العقيدة بل ذنب المعتقدين بها، وقد صاغ ذلك شاعر الإسلام محمد إقبال شعراً فقال:

من القرآن قد تركوا المساعى ... وبالقرآن قد ملكوا الثريا
إلى التقدير ردوا كل سعى ... وكان زماعهم قدراً خفيا
تبدلت الضمائر فى إسار ... فما كرهوه صار لهم رضيا(٢)

وقد استغل نابليون بونابرت تلك الفكرة المنحرفة عن القضاء والقدر لما احتلت جيوشه الصليبية أرض مصر، فكان يصدر منشوراته بتذكير المسلمين بأن ما وقع لهم من الاحتلال والأسر كان بقدر من الله، فمن حاول الاعتراض على ما وقع فكأنما يعترض على القضاء والقدر(٣).

لقد كانت مفاهيم التصوف المنحرف تنخر فى كيان الدولة العثمانية، وكان العالم الصليبى ينطلق فى مجالات العلم وميادين المعرفة آخذاً بأسباب القوة والتقدم والرقى، ويدير المؤامرات والدسائس لتفتيت الدولة العثمانية، ومن ثم الهيمنة على العالم الإسلامى.

وكان المتصوفة المنحرفون مقبلين على استماع الملاهى والمعازف ويتعلمون الموسيقى، وكانت مجالسهم مليئة بالطبول والنايات والأعلام والرايات، وكانت كثير من الطرق المنحرفة لا تخلو حلقات الذكر من الدف حتى قال أبو الهدى الصيادى وهو من خواص السلطان عبدالحميد الثانى، ومن أنصار الجامعة الإسلامية:

---

(١) انظر: الإسلام قوة الغد العالمية، باول سمتز، ص٧٨.
(٢) انظر: العلمانية، سفر الحوالى، ص٥١٩.
(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٤٦٧).

اضـــرب الـدف وجـــانـب جـــاهـلاً   حكـمـــة الـشـــرع لمعنـى مـــادرى
كـل مـــا حـــرك قلبـــاً ســـاكـنـاً   ودعـــا الـعـــقل منه مـــعـــتـــبـــراً
وأجـــال الـروح فـى بـرزخـــهـــا   تـذكـــر الله وتـبـــغـى مـظـهـــراً
فـــهـــو بـر والـذى يـفـــعـلـه   فـــعـل الـبـــر والله يـرى
إن فـى الـدف وفـى رنـتـــــه   نـغـمـــة يـعـرفـهـــا من ذكـــرا
صـــوتـه ذكـــر وفـى بحـتـــه   أنـه تـذكـــر أوقـــات الـســـرى
نـضـــرب الـدف ومـنـه عـنـدنـا   ذاكـــراً نـســمـعـــه لـن يـفـتـــرا[١]

وقد كان للسماع عند جمهور المتصوفة منزلة عظيمة، يقول أبو الهدى الصيادى: «من لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن لطف الاعتدال بعيد عن نور الروحانية، زائد فى غلظة الطبع وكثافته، بل هو أبلد من الجماد والطيور وسائر البهايم، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة.. وبالجملة فالسماع يثمر حالة فى القلب وتسمى وجدا، ويثمر الوجه تحريك الأطراف، إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وإما بحركة موزونة فتسمى التصفيق والرقص»[٢].

وياليت أولئك المتصوفة اقتصروا على الولوع بالطرب والسماع والغناء، ولكنهم جعلوه إلى الله قربة، وعدوه طاعة تلين بها القلوب، وتشف بها الأرواح.

وما أحسن ما قاله العلامة الحافظ ابن القيم الجوزية عن هؤلاء المتصوفة حيث يقول: «فلو رأيتهم عند ذياك السماع، وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا له كتمايل النشوان، وتكسروا فى حركاتهم ورقصهم، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان؟.

ويحق لهم ذلك، وقد خالط خمرة النفوس، ففعل فيها أعظم ما تفعله حميا الكئوس، فلغير الله، بل للشيطان، قلوب هناك تمزق، وأثواب فى غير طاعة تنفق، حتى إذا عمل السكر فيها عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزهم بصوته وحيله، وأجلب عليهم برجله وخيله، وخز فى صدورهم وخزاً، وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزاً ، فطوراً تجعلهم

---

(١) انظر: رياضة الأسماع فى أحكام الذكر والسماع للصيادى، ص٤٥.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص٧٨.

كالحمير حول المدار، وتارة كالذباب ترقص وسط الديار، فيرحمة للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام، ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام، ويا شماتة أعداء الإسلام، بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام، قضوا حياتهم لذة وطرباً، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، مزامير الشيطان أحب إليهم من سماع سور القرآن، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكناً، ولا أزعج له قاطناً، ولا أثار فيه وجداً ولا قدح فيه من لواعج الأشواق إلى الله زنداً، حتى إذا تلى عليه قرآن الشيطان وولج مزموره سمعه، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت.. ولقد أحسن القائل:

تلى الكتاب فأطرقوا لا خيفة	لكنه إطراق ساه لاهي
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا	والله ما رقصوا لأجل الله
دف ومزمار ونغمة شادن	فمتى رأيت عبادة بملاهي
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا	تقييده بأوامر ونواهي
سمعوا له رعداً وبرقًا إذ حوى	زجرًا وتخويفًا بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن	شهواتها يا ذبحها المتناهي
وأتى السماع موافقًا أغراضها	فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه(١)

وهكذا أصبحت حياة المتصوفة المنحرفين في اللهو والسخافة، وأضاعوا أوقاتهم وأعمارهم في مجالس الذكر والسماع والملاهي، وأصبحت حياتهم من أولها إلى آخرها تدور حول الذكر في صورته المنحرفة، وضاعت عبادة السعي في مناكب الأرض وطلب الرزق، والجهاد، وطلب العلم ونشره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكلها أمور تشغل عن الذكر وتصد عنه، ومن ثم ينبغي على المسلم أن لا يشتغل بها وأن يعيش حياته على الذكر بالسماع والغناء والرقص.

ودخل في عالم التصوف المنحرف تقديس الأشخاص الأموات منهم والأحياء، ونسبوا إليهم خوارق العادات والكرامات، وعاشوا في الأوهام، عالم الخيال، وأصيب الناس بالوهن

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/٥٠٦).

والعجز والانحطاط، واتسعت هوة التخلف والسقوط، وكانت أوروبا الصليبية تواصل صعودها فى سلم الحضارة المادية وتعد جيوشها للزحف على العالم الإسلامى الغارق أهله فى دنيا الخرافات والأوهام، والاتكال على الخوارق والكرامات.

فى الوقت الذى كانت فيه الأمة تعانى أشد المعاناة من الضعف والانحطاط، وتدور عليها المؤامرات من الأعداء وتحاك لها الدسائس، كان كثير من علمائها طوع مشيئة شيوخهم من المتصوفة المنحرفين الذين أشاعوا روح الذل والخنوع فى الأمة والذلة والهوان، وغير ذلك من الأمراض المنحرفة، وتركت كثير من الطرق الصوفية المنحرفة الجهاد لمقارعة الأعداء، وأصبح الأولياء فى عرف الناس هم المجاذيب والمجانين والمعتوهين، ولا شك أن هناك بينهم بنسبة كبيرة من الدجالين والمحترفين، استغلووا ما للمجاذيب من مكانة مقدسة فى نفوس الناس، فاندسوا فى صفوفهم، ليصبحوا ضمن رابطة الأولياء، من الذين لا لوم عليهم ولا عتاب، مهما ارتكبوا من الموبقات، وجاهروا بالفواحش والآثام، وكان الكثير منهم يتعامل مع الجن فكان طبيعيًا أن تنفذ سهام الأعداء، وتنجح مخططاتهم، وتحتل جيوشهم أرضنا، وتستباح بيضتنا، ولقد حفلت الصوفية ببحر زاخر من العقائد المنحرفة والضالة ولعل آخر العقائد ممن آمن بها كثير من المتصوفة المنحرفين عقيدة وحدة الوجود والحلول، لقد احتضن المتصوفة المنحرفين هذه العقائد، وعملوا على نشرها، وألفوا مؤلفات من أجلها واعتبروها الحقيقة التى كشف لهم سرها وستر عن الآخرين.

وكان تدريس كتابى (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكية) لـ (ابن عربى) وغيرهما من كتب المتصوفة التى تطفح بعقيدتى وحدة الوجود والحلول هو شعار كبار العلماء من المتصوفة وغيرهم، وهو المنزلة العلمية التى لا يتبوؤها إلا الخاصة منهم، والمستوى العلمى الذى لا يرقى إليه إلا فحول العلماء(١).

لقد لقيت هذه العقائد المنحرفة رواجًا واسعًا بين المتصوفة المنحرفين فى تلك الفترة الحرجة التى كانت تمر بها الأمة الإسلامية، فكان كثير منهم يؤمن بعقيدة وحدة الوجود، التى لا يمكن للحياة فى ظلها أن تفسد، ويحيق الدمار بالعالم، وتبطل الأديان بالكلية، فلا يبقى معها دين ولا جهاد، ولا عداء بين مسلم وكافر، فالكل واحد، والوجود واحد، وإن تعددت المظاهر، نسأل الله السلامة فى الدين.

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/٥٥٦).

وكان هناك استخفاف كثير منهم بالشرائع، وإلغاؤهم التكاليف أو إسقاطهم لها، واستهانتهم بأوامر الدين ونواهيه، تحت مسمى الولاية والحزب والجذب والشهود. ولقد كان واقع الصوفية حجة قوية استندت إليها حركات التغريب التى نخرت الدولة العثمانية.

خامساً: نشاط الفرق المنحرفة:

كالشيعة الاثنى عشرية، والدروز والنصيرية، والإسماعيلية والقاديانية والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام.

لقد كانت تلك الفرق قد استفحل أمرها، خصوصًا مع مجئ الاستعمار الصليبى الذى طوق الأمة الإسلامية، فكانوا على عادتهم دائمًا مع أعداء المسلمين عونًا لهم وجنداً مخلصين تحت قياداتهم.

ففى الماضى كانوا أكبر عون للتتار والصليبيين ضد المسلمين، وها هم يسيرون على نفس المنهج الممزوج بالخيانة والتآمر لحساب أعداء الأمة، وقد مر بنا فى هذا الكتاب دور الصفوية الاثنى عشرية الشيعة فى محاربة الدولة العثمانية على مر عصورها، وحين احتل الفرنسيون سوريا وانطلقت الحركات الجهادية ضدهم كان الإسماعيلية فى سليمة وغيرها يقاتلون جنبًا إلى جنب مع الفرنسيين كما فعلوا مع المجاهد (إبراهيم هنانو) ومن معه من المجاهدين(١).

أما طائفتا النصيرية والدروز فقد كانتا على مر التاريخ والعصور مصدراً لإثارة القلاقل وزعزعة الأمن والثورات المستمرة ضد الحكم الإسلامى، وعونًا للأعداء من الصليبيين المستعمرين وغيرهم.

وفى القرن الثالث عشر الهجرى تفاقم أمر النصيرية وتعاظم خطرهم فى بلاد الشام مما حدا بـ(يوسف باشا) والى الشام أن يقود جيشًا بنفسه ويقاتلهم حيث (انتصر عليهم وسبى نساءهم وأولادهم، وكان قد خيرهم بين الدخول فى الإسلام أو الخروج من بلادهم فامتنعوا وحاربوا وانخذلوا وبيعت نساؤهم وأولادهم، فلما شاهدوا ذلك أظهروا الإسلام تقية، فعفا عنهم وعمل بظاهر الحديث وتركهم فى البلاد..)(٢).

وقد قاموا بثورة كبيرة عام ١٨٣٤م وهاجموا مدينة اللاذقية ونهبوها وفتكوا بأهلها. وقد حاول السلطان عبد الحميد الثانى أن يعيدهم إلى حظيرة الإسلام وأرسل رجلاً من خاصته

---

(١) انظر: الأعلام (١/ ٤٢).

(٢) انظر: حلية البشر (٣/ ١٦٠٠).